سڤن هدن في بلاد التبت

ذكرنا في الاجزاء الماضية فقرات كثيرة من اخبار سڤن هدن الرحالة الاسوجي الشهير الذي ضرب في بلاد التبت واخترق قفاراً لم يخترقها احد قبلهُ ولقي فيها من المشاق ما يفوق الوصف

وقد تمَّ هذا الرحَّالة رحلتهُ الاخيرة الآن بعد ان قضى ثلاث سنوات انقطع فيها عن الاتصال بالعالم المتمدن وعن محادثة احد من الناس غير الرجال القليلين الذين كانوا معهُ وطوى في هذه السنوات الثلاث ستة آلاف ميل ليس منها في بلاد معروفة الاَّ اربع مئة ميل وما بقي ففي مجاهل لم تطأها رجل اوربي قبلهُ ويقال ان اهالي اسيا ايضاً لم يكونوا يعرفونها . وقد رسم الطرق التي سار فيها وصوَّر البلاد التي حولها صوراً فوتوغرافية وقال ان غرضهُ علمي محض وقد يكون كذلك ولكن اوربا مشحونة بطلاَّب المكاسب وهؤلاء لا بد من ان يجدوا سبيلاً للكسب من قفار اسيا ومجاهلها بالتجارة اولاً ثم بالامتلاك والاستعباد . وكأننا بالاوربيين اربعة رجال جغرافي ينظر في الخريطة التي رسمها سڤن هدن لرحلتهِ وهمُّهُ الوحيد ان يضيف ما اكتشفهُ هذا الرحَّالة الى خزانة معارفهِ . وتاجر ينظر اليها ويبحث عن الاقوام الساكنين في تلك البلاد وطرق الوصول اليهم وما يمكن ان يروج في بلادهم من البضائع . وقائد يدرس مواقعها الحربية والسُبُل الموصلة الى فتحها او احتلالها اذا دعت الحال الى ذلك . ووراء هؤلاء الثلاثة الرجل المالي الكبير الذي لا همَّ لهُ الاَّ استخدام الامم لتشغيل اموالهِ واستخدام حكوماتهم لضمانة ريعها واستخدام حكومة بلادهِ للسيطرة على تلك الحكومات حتى تكون ضماناً للضمانات وهو القوة التي تحرِّك سياسة العالم وميزان السياسة وسائر القوى ثانويَّة بالنسبة اليهِ

لما كان سڤن هدن في بطرس برج سنة ١٨٩٩ رفع الى القيصر نسخة من رحلتهِ الاولى واخبرهُ انهُ عازم على رحلة ثانية تبرَّع ملك اسوج وزوج بتقديم نفقاتها فقال لهُ القيصر اذا اعطيك الحرَّاس اللازمين لك من رجالي القزاق لاني اود ان تكون بمأمن من كل خطر فخذ معك هؤلاء الرجال تجد منهم ما يرضيك . فقبل ذلك شاكراً وقام قاصداً اواسط اسيا ومعهُ اربعة من هؤلاء القزاق فكانوا خير الرفاق لانهم معتادون تجشم المشاق بارعون في الصيد والقنص وواحد منهم يحسن الطبخ وتدبير الطعام وكلهم يحسنون ركب البلدان بالفوتوغراف

ووصل الى كشغر في ١٧ اغسطس سنة ١٨٩٩ وسار الى نهر يركند وابتاع قاربًا من هناك فنزل في هذا النهر مسافة شهرين ونصف ثم منعهُ الجليد من مواصلة السير فعاد يجول في صحراء غوبي فلم يجد فيها غير كثبان الرمال وكانت الرياح هاجعة فلم تلحق بهِ اذًى . وكان معهُ

ثمانية جمال محملة ثلجاً بدل الماء فقطع جانباً من الصحراء ثم عاد ادراجهُ الى مخيمهِ لان رجالهُ اعيوا من شدَّة التعب فاختار غيرهم وعاد يضرب في الصحراء فعثر بخرائب بيت فوقف وجعل يحفر الرمل فوجد امامهُ مدينة غمرتها الرمال ولم يكن في طاقتهِ حينئذٍ ان يتابع النقب لشدة الحر فتركها بعد ان عيَّن موقعها وعاد اليها في الشتاء التالي فوجد انها مدينة كبيرة كانت عامرةً حينما عصفت عليها الزوابع وطمرتها الرمال ووجد فيها كتباً كثيرة اتضح منها ان تلك المدينة كانت للمغول وهجرت منذ ثمانمئة سنة على الاقل

واكتشف في رحلتهِ هذه الجمال البرية وقطع بحيرة لبنور ومضى الى شمالي بلاد التبت واختار نفراً من نخبة اتباعهِ وسار بهم مسافة ثلاثة اشهر في بلاد عالية شديدة البرد وجد فيها من المشاق اشدها ومات واحد من رجالهِ واربعة من جمالهِ وكل خيولهِ وكان معهُ قطيع من الغنم لطعامهِ فيهِ ستة عشر خروفاً فافترست الذئاب تسعة منها. واكتشف في طريقهِ بحيرات مالحة كبيرة وكان معهُ قارب يمكن طيهُ ونشرهُ صنعهُ في لندن لهذه الغاية فنشرهُ وقطع البحيرات بهِ. ووصل الى بحيرة كوم كول ولا اثر لهذه البحيرة في خريطة من الخرائط المعروفة مع انها كبيرة اقتضى قطعها من طرف الى طرف يوماً كاملاً وضفافها قاحلة مثل كل البلاد التي حولها

واطول هذه السفرات واشدها خطراً اختراقهُ بلاد التبت جنوباً حتى بلاد الياك وتزياً حينئذٍ بزي المغول وقصد مدينة لاسا حرَّم اهالي تبت واخذ معهُ رجلين فقط واحداً من القزاق وواحداً من المغول حتى صار على خمسة ايَّام منها بطريق القوافل فأوقف هناك بامر من رجال الحكومة في لاسا. والظاهر انهم كانوا يعلمون غرضهُ فمنعوهُ من الوصول الى مدينتهم فعاد ادراجهُ ومعهُ حرَّاس من اهالي تبت الى ان وصل الى رجالهِ. فعزم ان يقصد مدينة لاسا بطريق آخر وان يسير اليها جهرةً بكل رجالهِ ففعل ووجد هذا الطريق كثير الينابيع والمدران ولكنهُ لم يبعد كثيراً حتى وجد خمس مئة من جنود تبت ارسلوا لصدهِ عن الوصول اليها فرأى السلامة في الرجوع. ولما رأوا انهُ اقلع عن عزمهِ مختاراً تودَّدوا اليهِ وعاملوهُ بالحسنى وقدموا لهُ كل ما يحتاج اليهِ من الزاد وساروا في حراستهِ عشرة ايام الى حدود بلادهم وكان عددهم يقل بابتعادهم عن مدينتهم وافتناعهم انهُ راحل عنهم حتى اذا بلغ التخوم الانكليزيَّة لم يبقَ معهُ منهم سوى عشرة وكانوا في اول الامر مئتي رجل شاكي السلاح. وكان معهُ في رجوعهِ تسعة وثلاثون جملاً فمات منها ثلاثون وخمسة واربعون فرساً فمات منها ٤٤ وسبعون حماراً فماتت كلها

وسنعود الى وصف بعض المشاق التي لقيها في هذه الرحلة. ونكرِّر ما قلناهُ سابقاً وهو ان غرضهُ علمي جغرافي على ما يظهر ولكن الطامعين يستخدمون مكتشفاتهِ الجغرافية لاغراض اخرى